

فبشر عباده الذين يستمعون القول
فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم
الله وأولئك هم أولو الألباب

المكتبة

١٣١٥

بوتن المكتبة من يشاء ومن يوت
المكتبة فقد أوتي خيراً كثيراً وما
يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: إن الإسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق

مصر في يوم الأربعاء ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٢٠ - ٢٠ أغسطس (آب) سنة ١٩٠٢

(الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد قاضي القضاة في الأندلس)

هذا الفيلسوف أشهر فلاسفة المسلمين وأكبر أساتذة أوروبا في العلم والفلسفة لأن فلسفته انتقلت من الأندلس (إسبانيا) إلى سائر بلاد أوروبا فكانت مبدأ نهضة الأوربيين الحاضرة . ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة ، وتوفي سنة ٥٩٥ في بلاد المغرب . وقد نشرت مجلة الجامعة الفراء تاريخه وتكاملت عن فلسفته واستطردت إلى مسائل أخرى كذهب المتكلمين في الوجود والمقابلة بين الإسلام والنصرانية في اضطهاد العلم والفلسفة وعدمه . وقد وقع في تلك الترجمة غلط في هذه المسائل ، والإنسان دائماً عرضة للخطأ والغلط فيما تعلمه وأتقنه فكيف يكون حاله فيما لم يتعلمه بالتالي عن أهله إذا تكلم أو كتب فيه . وإن صاحب الجامعة الفاضل لم يتعلم علم الكلام الذي هو فلسفة العقائد الإسلامية لأنه ليس مسلماً ولا فلسفة اليونانيين لأنها قد نسخت بالفلسفة العصرية فلا شك عندنا أنه لم يعتمد تكفير القاضي ابن رشد ولا نسبة أئمة المسلمين في العقائد إلى إنكار ارتباط الأسباب بالمسببات . ولكن بعض الذين قرأوا تلك الترجمة في مجلته أساؤا الظن به واحتموا عليه ورغبوا إليها في الرد عليه لأن من وظيفة المنار الدفاع عن العقائد الإسلامية وعن أئمة المسلمين وطلب بعضهم مثل ذلك من بعض أساتذتنا الاعلام ، الذين يرجع إليهم إذا اشكر من ليل الشبهات الظلام ، ولما رأينا ذلك الاستاذ وعد الطالبين بأن يكتب

في بيان حقيقة تلك المسائل التي وقع فيها الخطأ امسكنا نحن عن الكتابة لأنه هو الأجدر بالفصل بين الحق والباطل . والذي إذا قال لم يترك مجالاً لقائل ، وقد تفضل علينا وعلى الجامعة بما كتب فنشر في هذا الجزء مقالته في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين . وسنشر في الأجزاء التالية مقالاته في الاضطهاد في النصرانية والإسلام »
تهديد لقالة الأستاذ الحكيم : لا بد لفهم قراء النار هذه المقالة من ذكر ما قالته الجامعة في فلسفة ابن رشد لأن كاتب المقالة لم يذكر فيها الا مواضع النقد قالت الجامعة :

﴿ المادة وخالق العالم ﴾

« ان أعظم المسائل التي شغلت حكم قرطبة مسألة أصل الكائنات ، وهو يرى في ذلك رأى ارسطو . فيقول ان كل فعل يقضى إلى خلق شيء إنما هو عبارة عن حركة . والحركة تقتضي شيئاً لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخالق وهذا الشيء هو في رأيه المادة الأصلية التي صنعت الكائنات منها . ولكن ما هي هذه المادة ؟ هي شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف . بل هي ضرب من الافتراض لا بد منه ولا غنى عنه . وبناء عليه يكون كل جسم أبدأً بسبب مادته أي انه لا يتلاشى أبدأً لان مادته لا تتلاشى أبدأً . وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال والاحداث فراغ ووقوف في الكون وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شيء قط . وبناء عليه فالعامل الأول الذي هو مصدر القوة والفعل (أي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثاً والخالق نزه عن ان يكون حديثاً

﴿ اتصال الكون بالخالق ﴾

« هذا فيما يختص بخلق العالم ، وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى . ولكن كيف يستولى العامل الأول على الكون ويديره
« لابن رشد في ذلك تمثيل يدل على حقيقة مذهبه في هذه المسألة الخطيرة . فانه يشبه حكومة الكون أي تديره بحكومة المدينة . فانه كما ان كل شؤون المدينة تنفرق وتوجه إلى نقطة واحدة وهي نقطة الحاكم العام فيها فيكون هذا الحاكم مصدراً لكل شؤون الحكم ولو لم تكن له يد في كل شأن من هذه الشؤون كذلك الخالق في الاكون فانه نقطة دارتها ومصدر القوات التي تديرها وان لم يكن له دخل مباشرة

في كل جزء من هذه القوات . فبناء على ذلك لا يكون للكون « اتصال » بالخالق مباشرة . وإنما هذا الاتصال يكون للعقل الأول وحده وهذا العقل الأول هو عبارة عن المصدر الذي تصدر عنه القوة للشكواكب . وعلى ذلك فالجاء في رأى فيلسوف قرطبة كون حتى بل أشرف الأحياء والساكنات ، وهي مؤانسة في رأيه من عدة دوائر يعتبرها أعضاء أصلية للحياة والنجوم والكواكب تدور في هذه الدوائر . أما العقل الأول الذي منه قوتها وحياتها فهو في قلب هذه الدوائر ولكل دائرة منها عقل أى قوة تعرف بها طريقها كما ان للانسان عقلاً يعرف به طريقه وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض والتي تلى بعضها بعضاً محكومة بعضها ببعض إنما هي عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التي تحدث الحركة من الطبقة الأولى في السماء إلى ارضنا هذه . وهي عالمة بنفسها وبما يجرى في الدوائر السفلى البعيدة عنها . وبناء على ذلك يكون للعقل الأول الذي هو مصدر كل هذه الحركات علم بكل ما يحدث في العالم .

(طريق الاتصال)

« وان قيل ماهى علاقة الإنسان بالخالق . فالجواب عن ذلك يأخذه ابن رشد أيضاً عن ارسطو من الفصل الثالث من كتابه « النفس » وخلاصة ذلك ان الكون عقلاً فاعلاً وعقلاً منفعلاً فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الإنسان وغير قابل للامتزاج بالمادة وأما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء والتلاشى مثل باقى قوى النفس وإنما يقع العلم والمعرفة بالآحاد هذين العقلين . ذلك ان العقل المنفعل يميل دائماً للآحاد بالعقل الفاعل كما ان القوة تقتضى مادة تنفذ فيها والمادة تقتضى شكلاً توضع به . وأول نتيجة تحصل من هذا الآحاد تدعى العقل المكتسب ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام آحاداً أشد من هذا فيكون هذا الآحاد عبارة عن امتزاجها جد الامتزاج بالعقل القديم الأزلى . ولا يتم هذا الآحاد بالعقل الاكتسابى الذي تقدم ذكره فإتاما وظيفة العقل الاكتسابى ايصاله إلى حرم الخالق الأزلى دون أن يدعمه به . وأما ادغامه واتصاله به فذلك أمر لا يتم الا بطريق « العلم » فالعلم إذاً هو سبب « الاتصال » بين الخالق والخالق . ولا طريق غير هذا الطريق . ومتى اتصل الإنسان بالله صار مثله عارفاً بكل شىء فى الكون ولم يعد يفته شىء . ولكن كيف يتصل الإنسان بالله ؟ يتصل به بان ينقطع إلى الدرس والبحث والتنقيب ويحرق بنظره حجب الاسرار التي تكتمف الكون فانه متى حرق هذا الحجاب ووقف على كنه الأمور وجد نفسه

وجها لوجه امام الحقيقة الابدية
 « اما المتصوفة فانهم يقولون ان هذا « الاتصال » يتم بواسطة الصلاة والتأمل
 والتجرد وليس العلم ضروريا له
 « وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قائده
 العلم . والكون في رأيه كما مر بك إنما منج بقوة مبادئ قديمة مستقلة بحكومة
 بعضها ببعض وكلها مرتبطة ارتباطاً شاملاً قهراً عليا ومن هذه المبادئ شيء يستولى
 على العالم ويضع فيه العقل فهو عقل الانسانية . وهذا الشيء الذي يسميه عقلا أيضا
 هو عقل ثابت لا يتغير أي انه لا يتقدم ولا يتأخر لا يزيد ولا ينقص . والناس
 يشتركون فيه ويستمدون منه بكميات متفاوتة . على أن من كان منهم أكثر استمدادا
 منه كان أقرب إلى الكمال والسعادة »

(الخلود)

ثم تسكمت الجامعة بعد ما تعتمد عن رأي ابن رشد عن خلود النفس فقالت بعد
 كلام ما نصه : « قال : ان العقل الفاعل العام الذي تقدم ذكره من صفاته انه
 مستقل ومنتقل عن المادة وغير قابل للفناء . والملاشاة ، والعقل الخاص المنفصل من
 صفاته الفناء مع جسم الانسان ، وبناء عليه يكون العقل العام الفاعل خالداً والعقل
 المنفصل فانياً ، ولكن ما هو العقل الفاعل للعام الذي هو خالد في رأي ابن رشد ؟
 ان هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الانسانية فالانسانية اذا هي خالدة وحدها
 دون سواها ، وبناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شيء مما يقوله العامة
 عن الحياة الثانية » اهـ

(دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين)

(لأستاذ حكيم ، وفيلسوف عليم)

قرأت ما نشرته الجامعة من ترجمة ابن رشد . مرت على ما نقلت من آراء
 المتكلمين وآرائه بغير تدقيق لأنني أعرف آراء الفريقين من قبل ولم يكن لي قصد إلى النقد
 وإنما أريد أن أستفيد جديداً . لهذا لم يهتف نظري لأول وهلة الاعلى ما حوته تلك الجملة
 (الاضطهاد في النصرانية و الإسلام) قرأها بتروء وانتهيت منها إلى حكم من الجامعة يخالف ما اعتقد

ولا يلتزم مع ما أعرف ويصرف المارفون من الشواهد التاريخية ، عنه ذلك تحركت نفسي إلى كتابة سطور ، أشير فيها إلى كشف مستور ، أو إعادة ذكر مشهور على أسماع الجمهور .

لأقاني بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الأثر في نفسه أشد ، ولسانه في الضيق أحد . وذكر أشياء في غير هذا الفصل من الترجمة ولقنتني إلى إعادة النظر فيها رجعت إلى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يعتبان مني الكلام عنهما ، وبأن أحاديث الجامعة فيهما لو كانت مترجمة الجامعة من نفس مترجمة غيرها من المجالات التي لا يعني كاتبوها إلا بنقل ما يقع تحت أنظارهم ، أو تحجير ما يعبّر عن أهوائهم وأفكارهم ، من دون عناية بتقريب الحقيقة ، ولا رعاية لمتقدمات القراء - لوجدت من شواغل عملي ما يصرفني عن ذكر ما عرض فيها ، لكنها من المجالات التي لو أهملت مباحثها من إنعام النظر وجمالها في جانب مما تستحقه من النقد لبحستها حقها ، ونبوت بها عن موضعها .

لهذا رأيت أن أذكر لها ما رأيت في ذينك الموضعين وأبين حقيقة الأمر في الثالث . أما الموضعان فهما : (فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود) و (فلسفة ابن رشد وآراؤه في خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الإنسان به والخلود) وهما موضوع كلامي اليوم

« فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود »

قالت الجامعة « فلسفة المتكلمين هذه (أي في وجود العالم) مبنية على أمرين . الأول حدوث المادة في الكون أي وجودها بتخلق خالق . والثاني وجود خالق مطلق لا يشرف في الكون ومنفصل عنه ومبهور به

وبما أن الخالق مطلق التصرف في كونه فلا تسأل إذاً عن السبب إذا حدث في الكون شيء لأن الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواء. إذاً فلا يلزم عن ذلك قطعياً أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلاقات كأن ينتج بعضها عن بعض لأن هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده. وفي الإمكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصوّر بها الآن وذلك بقدره هذا الخالق. ثم ذكرت في الجملة التي تلي ما تقدم أن هذه فوضى، وأن روحاً جديداً أخذ يدخل شيئاً من النظام فيها^(١).

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق فإن الخلق في اصطلاحهم هو الإيجاد وكون المادة صادرة عن موجود لم يختلف فيه التكلم والفيلسوف الإلهي. فأرسطو يقول إن المادة قد استفادت وجودها من وجودها وهو الواجب. وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال على ما سيأتي بيانه وإن كان لأول لوجودها وإزاء حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهي إلى انبساطها من جانب الماضي. ولا يجوز أن يوقف بالأزلية إلا الله وحده. صفاته عند القائلين بأنها وجودية. وقبل هذه البداية التي لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون. ثم إنه أثبت إيجاد الكون فأوجده من المدمم البحت. هذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر

(١) ذكرت الجامعة الغراء أن مذهب هذا الروح النظامي في مجلة المنار واستشهدت لذلك بالتفسير الذي نقلته من دروس الأستاذ الإمام كبير رجال النهضة الإسلامية الحاضرة

من المسيحيين واليهود أيضاً فلم يخالف فيه ملى من أهل الملل الثلاث .
 أما كون هذا المذهب وحده هو الذي يصح أخذ من القرآن أو
 أنه يجوز أن يتفق مع معاني القرآن رأى آخر بل هو الذي يظهر منه فذلك
 بحث آخر لسنا بصدده الآن فإن كلامنا في تصوير مذهب المتكلمين .
 الأصل الثاني - وهو وجود خالق مطلق التصرف - لازم للأصل
 الأول لأن هذا العالم إذا كان موجوداً بفعل موجد فوجوده هو خالقه
 وهو مطلق التصرف بمعنى أنه يختار ما يخلق على الوجه الذي يخلق .
 والمتكلمون وإن اتفقوا على أن خالق العالم مختار انقسموا إلى فريقين
 عظيمين فالقدرية منهم ويسمّون بالمعتزلة أيضاً قالوا : إن الخالق وضع
 للكون نظاماً تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين وأودع في المخلوقين
 قوى أو قُدراً تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية أو بطريق
 الإرادة والاختيار . فهذا فريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة في قولهم
 بلزوم الآثار لمصادرهما أو تأثير قدر المخلوقين في أفعالهم . وقد بقى من
 أهل هذا المذهب إلى اليوم طائفة الشيعة الإمامية والزيدية فإنهم لا
 يخالفون المعتزلة في هذه الأصول . فإذا حدث في الكون حادث سأل
 صاحب هذا المذهب عن سببه المباشرة وإن كانت جميع الأسباب تنتهي
 إلى مصدرها الأول وهو الخالق كما يسأل الفيلسوف بلافرق .
 والفريق الآخر الذي عنته الجمامة وهو الذي يرى إسناد الآثار إلى
 الخالق مباشرة لم يقطع الملاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها بل قال
 إن الله يُصدر وجود المسبب عند وجود السبب فلا يقال : إن الأكل
 (مثلاً) هو الذي يحدث الشبع بل الشبع شيء يحدثه الله عند الأكل ولكنه

لا يحدّثه عند الخوى إلا إذا أراد أن يخرق النظام الذي جرت به سنته
 لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه وحمل هذا الفريق على هذا القول
 إنكاره نسبة الإيجاد ومنع الوجود إلى شيء مسوي واجب الوجود وقالوا
 في الأفعال الاختيارية إن الله يوجد لها عند تعلق كسب العبد بها ولهم في
 تصوير معنى الكسب كلام طويل لا يليق بهذا المقال استيفاءً وقالوا
 إن الأسباب والآلات لا بد منها في صدور الأثر إلا أن الذي يعطيه
 الوجود عند استكمالها هو الخالق، ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن
 التكليف بالأحكام الشرعية يعتمد التمكن من الإتيان بالمكلف به من
 حيث حال المكلف وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشيء إلا إذا تيسرت
 أسبابه وارتفعت الموانع منه، غير أنهم يقبضون هذه الأسباب بالمادية لأنه
 ليس من الواجب على الخالق أن يلتزمها مع اعتقادهم بأنه قررها وجرت
 سنته بها ولقبوا ما يحدث في العالم مخالفاً لها بخارق المادة وليس كل
 غريب عندهم خارقاً للمادة بل الخارق هو الذي لا يدخل في مكنة قوة حادثة
 ولا يقدر على إحداثه إلا نقاد على مخالفة النظام الذي سنه وهو الله
 هذا الفريق من المتكلمين يستند في إثبات صفة العلم لله تعالى إلى ما
 هذا العالم من النظام وإلى ما حواه ذلك النظام من الأسرار والحكم وهل
 يتأتى هذا الاستناد منهم إن لم يقولوا بوجود العلاقة بين الأسباب ومسبباتها
 كان من هذا الفريق آفة تناول بحثهم كثيراً من الفنون كالطب وعلم
 المواليد الثلاث الحيوان والنبات والمعدن منهم الأئمة الرازيون كفخر الدين
 الرازي وأبي بكر الرازي ومحمود الرازي وأمثالهم ومهم مثل الإمام
 أبي بكر الباقلائي. وكيف يبسر نقائل أنه لا علاقة بين الأسباب

والمسببات أن يبرع في فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار وما يقارنها في المادة مما هو مصدر لها في بادية النظر.

فإذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذي جرت منه الله بأن يكون معه وإن شئت قلت سأل عن السبب الذي أصدر الله وجوده عنده . وهل يمكن أن يقول المتكلم أنه لا علاقة بين وجود الولد ووجود والديه أو بين جودة العمل وعلم العامل أو بين غزارة الثمر وخدمة الشجر ؟ هذا شيء لم يقل به قائل منهم قط . إلا لما قرأ واحد منهم كتابا ولا خيط في صحيفة سطر لأنه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والأفهام .

فإن شئت أن تقول إنه مذهب مع ذلك غامض يكذب الذهن في فهمه فلك أن تقول وأن تنعم النظر حتى تفهم مبانيه وأصوله وأن تناقش بالدليل الدليل . وعلى الله قصد السبيل .

القول بنفي الرابطة بين الأسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد في كتابه أن الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبيل تحول عن مكانك فيتحول الجبيل^(١) يلىق بأهل دين يمد الصلاة وحدها إذا أخلص المصلي فيها كافية في إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم المنصرى . وليس هذا الدين هو دين الإسلام دين الإسلام هو

(١) المنار - يشير إلى ما جاء في أنجيل لوقا من الباب ١١ « ٢٣ » لاني الحق أقول

لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن ان ما يقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كلما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم «

الذي جاء في كتابه «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم» الآية «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الخ «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» وأمثالها «ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار» الآيات . فلا يمكن لأهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب في هذا العالم والمسببات ولهم أن يتبها على أرباب ذلك الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أسامه على دعوت من الخوارق لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه إذا سال عليه سيل الدليل ، وإنما وضع على مستقر من الحقائق لا يتزلزل بالقائم عليه مهما عظم القول والقبل ، وليس من الممكن لمسلم أن يذهب الى ارتفاع ما بين حوادث الكون الترتيب في السببية والمسببية الا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله .

نم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين الى ائمة ذلك المذهب وأسماؤا الظن بالقدرو وتظاهروا وابتترك الأسباب في أقوالهم ، وان كانوا أشد الناس تمسكا بها في ردائل أعمالهم ، وتعلقوا من الخوارق بجبل وهن ميلا إلى أهواء من جاورهم من الملل فظن الناظرون في قذائف أفواههم ، ان هذه الأوهام مما نبى عليهم اعتقاد اسلافهم ، فلا يفترون بمد ذلك مفترضا يظن أولئك الناظرون ولا بما يتوهمه هؤلاء الواهمون « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » . هذا ما يتعلق برأى الجامعة في مذهب المتكلمين أو فلسفتهم وانتقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيا فيه .

﴿ فلسفة ابن رشد ورأيه في المادة وخلق العالم ﴾

المادة وخلق العالم قالت الجامعة: إن المادة «ضرب من الافتراض لا بد

منه» الافتراض يراد به عند الإطلاق الفرض وهو في اصطلاح

الفلاسفة مالا وجود له والمادة عندهم موجودة كما قالت الجامعة فيما قبل ذلك التحريب وفيما بعده .

ثم قالت : « وبناء عليه فالمعامل الأول الذي هو مصدر القوة والفعل (أي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثا والخالق ينزه عن أن يكون حديثا . » وقالت بعد هذا بسطرين : « وهو (أي مذهب ابن رشد) مذهب قريب جدا من مذاهب الماديين كما ترى » ثم ذكرت أن الفيلسوف يشبه حكومة الكون بحكومة المدينة وأن المباشر للتصرف في الكون هو العقل الأول وحده وأن السماء كون حسي مركب من عدة دوائر والعقل الأول في قاب هذه الدوائر ولكل دائرة عقل أي قوة تعرف بها طريقةها . الخ
أما مسألة نفي الاختيار فقد ذكرت عليها إبهامها وأدّى ذكرها كذلك إلى استنتاج أن مذهب ابن رشد قريب من مذهب الماديين وليس الأصرف في حقيقته كذلك .

يعلم كل ناظر في مذاهب فلاسفة اليونان أنهم كانوا فريقين إلهيين وماديين والأولون فريقان مشاؤون وإشراقيون واشتقوا باسم أرسطو باسم المشائين واتباع أفلاطون باسم الإشراقيين .

وأول مميز للإلهيين عن الماديين أن الأولين يقولون بوجود واجب برىء من المادة والمديات بوجود عقول مجردة عن المادة وغواشيها وبأن الواجب علما بذاته وبجميع ما يصدر عنه وعن آثاره وإن للمعقول المجرد عقلا علما بذواتها وببديتها وبما يصدر عنها . والماديون لا يقولون بشيء من ذلك ألته فالتحريب بينهما قريب بين النقيضين . وابن رشد من

مقررى منصب أرسطو فهو من الإلهيين .

وتشبيه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة اكبر دليل على مفارقة الماديين كما يفارق المجرد والمادة وقد شرطوا في هذا التشبيه ان المدبر خارج عن المدبر مفارق له منزّه عن مخالطته .

أما العقل الأول فليس كما تقول الجامعة . فإن العقل الأول جوهر مجرد عن المادة وهو أول صادر عن الواجب وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمّى عندهم بالفلك الأطلس ونفس ذلك الفلك تدبر كانه الحزينة وعقل آخر هو العقل الثاني وعن هذا الثاني صدر الفلك الثامن المسمّى عندهم فلك الثوابت ونفسه والعقل الثالث وهكذا الى أن صدر عن العقل التاسع فلك القمر ونفسه والعقل العاشر وهو المسمّى عندهم بالعقل الفعّال او العقل الفياض وعن هذا العقل صدرت المادة المنصرية واليه يرجع ما يحدث في عالمها . ولا يكون العقل الأول ولا غيره من العقول في قلب تلك الدوائر عند أحد من هؤلاء الفلاسفة الإلهيين بل هو مفارق لها كما ان نفوسها جواهر مفارقة أيضاً ولها تعلق باجسادها كتعلق أنفسنا بأبداننا على ما سيأتي بيانه

والذي حمل الإلهيين على ذلك مبالغتهم في تنزيه الواجب وقولهم انه واحد من جميع الوجوه وزعمهم أن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا الواحد فيلزم أن لا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العاقل الأول . ولما تعددت وجوه العاقل في ذاته والنسبة بينه وبين مصدره الماقلة لذاته وعقله لم يوجد صح أن يصدر عنه متعدد . ولهم في الاستدلال على حياة الأفلاك مقدمات لا حاجة إلى ذكرها لأن الكلام في تصوير مذهبهم

لا في تقريره أو إبطاله

فالمقول عند الفيلسوف ليست مخالطة للمادة ولا يفشاهاشيء من ظلماتها وليس العقل الأول بمدير الكون وإنما هو مصدر الفلك الاطلس ومفيض نفسه عليه وخزانة مقولاته . وهكذا الأمر في كل عقل مع الفلك الذي صدر عنه وتدير العالم المنصرى وهو ما دون فلك القمر راجع الى العقل المباشر وهو العقل الفعال .

قال الفلاسفة الإلهيون: ولا يجوز أن تكون لأفعال الله غايات وانغراض تبعثه على إصدارها وان ما يصدر عنه إنما يفيض بمحض الجود المطلق عن غنى مطلق وقد صرح ابن رشد في تهذيبه لإلهيات أرسطو وبذلك وهذا مبالغة منهم في نسبة الكمال إلى الله على أن ما يصدر عنه إنما يصدر عن علم فالذي ينفي عنه انما هو الاختيار بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح إحداها أما الاختيار بمعنى أن الفعل صدر عن علم العالم بدون اكراه عليه فذلك لا ينفيه أحد منهم . والمليون من متكلمين ولا هو تبيين وان لم يصرحوا بذلك قالوا بما يؤول اليه والتزموه فقد ذهب جمهورهم والمؤول على رأيه عند قومه منهم أن علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلاً وأبداً وقد تعاقبت إرادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه وعلمه لازم لذاته أزلياً بأزلية ذاته وكل ما يكون في الكون لا بد أن يقع على وفاق مع علمه الأزلي جل شأنه فلا تردد عنده بين الغايات بل ما يصدر عنه اليوم كان لا بد أن يصدر عنه . والأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض مما انتظم في علمه فهي تصدر عنه على حسب ترتيبها في العلم . وسواء كان القول غامضاً أو غير غامض وسواء توجه عليه من النقد ما يصب الجواب عنه

إذا روعيت بقية الأصول أو لم يتوجه كل ذلك لا يدفع عنهم أنهم قالوا ابنى
الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس وإن ثبت الاختيار بالمعنى الذى يليق بكمال
الله تعالى فالفلاسفة وجهور المتكلمين واللاهوتيين على وفاق فى حقيقة
المسألة وإن اختلفت العبارات فإن رشد رحمه الله لم يخرج فى آرائه عن
الميلين فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريباً منه .

﴿ طريق الاتصال ﴾

يتوهم الناظر فى هذا العنوان فى الجامعة مع مراعاة الفصل الذى تقدمه
فيها أنه عنوان لرأى ابن رشد فى طريق اتصال الكون بالخالق فإذا استمر
فى قراءة ما بعد العنوان الى آخر الفصل علم ان المراد طريق اتصال الانسان
وحده بخالقه وعثر فى آخر البحث على هذه العبارة: « وبناء على ذلك تكون
فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادى قاعدته العلم » : اما ما بين
العنوان وهذه العبارة فهو مما لا يمكن أن يتحصل له معنى مفهوم فى مذهب
الفيلسوف . وانى ذا كر لك رأيه فى اتصال الإنسان بالله أى قر به منه
وسمادته به وفى طريقة تكميله لنفسه حتى يسمد لذلك القرب وبذلك تعرف
أن ما جاء فى الجامعة ليس بالذى تصح نسبته اليه خصوصاً بعد قولها إنه
أخذ مذهبه فى ذلك عن أرسطو من الفصل الثالث فى كتابه (النفس)
وما قاله أرسطو فى ذلك الكتاب معروف مشهور .

اثبت أرسطو وتبعه ابن رشد وجل فلاسفة الإسلام أن نفس
الإنسان التى هو بها إنسان - وهى ما يلقبونها بالنفس الباطنة - جوهر
مجرد عن المادة لاهو جسم ولا حال فى جسم وانما له علاقة بالجسم يديره
ويصرفه وشبهوا هذه العلاقة بملاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها وهذه

النفس آلة في الجسم بها يكون التدبير
وقالوا ان انطباع المحسوسات والماتى الجزئية في الحواس الظاهرة
والباطنة على ما فصلوه يمد النفس لقبول الكليات ويهيئها لتلقى
المعقولات عن مفيضها عليها وهو العقل الفعال الذى سبق لنا ذكره
وجعلوا مراتب النفس فى استحصائها كالمها العلى وبلوغها ذروتها
اربعا (الأولى) العقل الهولانى وهو قوة استمداد النفس نحو المعقولات
وتسميته عقلا تسمية مجازية و(الثانية) العقل بالملكوتى هى القوة التى تحصل
للنفس عند حصول المعقولات الأولى مثل الجزء والكل ومثل الحكم
بأن الأول أصغر من الثانى ومثل النفى والاثبات والحكم بأنهما لا يجتمعان
فى محمول واحد لموضوع واحد . وكذلك كل ما خلاص من محسوس وهو
لا يحتاج فى تخليصه إلى فكر ، والنفس تنهياً بهذه القوة لاكتساب
المعقولات الثانية إما بالفكر . وإما بالحدس وليس الحدس هو الظن كما
هو فى المشهور بل هو سرعة انتقال النفس من المبادئ إلى المطالب أو
انتقال النفس من المعلومين إلى الوسط الذى يصل بينهما ومن ذلك إلى
معلوم ثالث بلا تجشم نظر ولذلك جعل مقابلا للفكر الذى هو النظر
بمعينه ؟ و (الثالثة) قوة تسمى العقل المستفاد وهى أن تحصل المعقولات
الثانية بالعقل متمثلة كالأولى مشاهدة فى الذهن . والرابعة قوة تسمى
(العقل بالفعل) وهى ما به تتمكن النفس من استحضار المعقول
المكتسب المفروغ منه متى شاءت من غير افتقار إلى اكتساب
قالوا والذى يرقى بالنفس فى هذه المراتب هو العقل الفعال وهو ذلك
العقل العاشر المصرّف للمادة العنصرية لعقل الإنسانية العام كما تقول الجامعة

فإن أرسطو وابن رشد لا يقولان بعقل يسمى عقل الإنسانية العام بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون التي عني أرسطو بإبطالها وتبعه ابن رشد وغيره في نفيها . فالمقل الفعال هو الذي يخرج النفس من العقل الهبولاني إلى العقل بالملكة ومن العقل بالملكة إلى العقل المستفاد ومنه إلى العقل بالفعل ولما كان العقل الفعال جوهرًا عقلياً بالفعل كانت المعقولات بأسرها حاصلة له بالفعل أما نفوسنا فهي عقول بالقوة ولكنها إذا استمدت استعداداً خاصاً للاتصال بذلك العقل أي بالإقبال عليه وتوجيه وجهتها نحوه ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد الخاص لأحكام خاصة . وإدراك المماني الجزئية بواسطة الحواس وحركة النفس في المعقولات الأولى والبحث والتجربة والدرس وما ينبج هذا النحو كل ذلك من محصلات الاستعداد لقبول المعقولات في الموضوعات التي كان الاستعداد فيها . فإذا أعرضت النفس عن العقل الفعال والتفتت إلى جانب الحس أو إلى صورة أخرى غير التي حصلت لها بذلك الاستعداد انجى الممثل الذي كان أولاً كأن المرأة التي كان يجاذى بها جانب القدس ، قد أعرض بها عنه إلى جانب الحس ، أو إلى شيء آخر من الأمور القدسية .

قالوا : وهذا الاتصال الذي يفيض به العقل الفعال على النفس ما استمدت له من المعقولات له علة وعاتة قوة بميدة هو العقل الهبولاني وقوة كاسية هي العقل بالملكة وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الإشراق متى شامت بتلكه متمكنة وهي المسماة بالعقل بالفعل

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يمتد بقولهم وفيها ما يشبهه ما نسبتها الجامعة لابن رشد منها أن الجوهر

المائل إذا عقل صورة عقلية صار هو إياها . واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه أن تصير النفس جميع المنقولات التي تحصل لها وتصير المنقولات كلها مقولاً واحداً بل يلزم عليه اندام النفس ووجوه ما عقلته أو استحالة النفس إليه وهو محال وخلاف الفرض . وتلقوا عن فرقدوريوس أنه قال : إن النفس الناطقة إذا عققت شيئاً فإنما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالمقل الفعال وهو حق في رأيهم ولكنه قال إن معنى اتصالها بالمقل الفعال أن تصير هي نفس المقل الفعال لأنها تصير المقل المستفاد والمقل الفعال يتصل نفسه بالنفس فيكون المقل المستفاد . وقد أبطأوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون المقل الفعال متجزئاً فديتصل منه شيء دون شيء وهو مجرد لا يتجزأ أو تتصل به النفس اتصالاً واحداً تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل مقول وهو ليس بحاصل في جميع الأحوال وقالوا إن دعوى اتحاد شيء بشيء آخر على معنى استحالة الأول إلى الثاني قضية شرعية غير مقولة فلا يصح النظر فيها . أما استحالة النفس إلى المقل الفعال فلم يقل به أحد .

فقد عرفت من هذا أن اتصال النفس بالمقل الفعال ليس بمصادق البناء فيه أو الاندغام كما عرفت الجامعة بلا مناد أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة العنينة عما يكون لها من الاستمداد وتنجذب نحو العالم الأعلى فاشرف فيها المعلومات بمحاذاتها لمطالع ذلك النور الأجل ، فهل مع هذا يصح أن يدعى إلى الفيلسوف ما عدا غير مقول ؟

قال ابن سينا في شرحه إن النفس الناطقة التي هي موضوع التصورة الحسية غير منطبقة في جسم تقوم به بل هي جوهر حقيقي ذو آلة بلطيمية

فاذا امتدح الجسم عن أن يكون آلة لها وحافظاً للعلاقة معها بالموت لم يضر ذلك جوهرها بل تكون باقية بما هي مستفيدة الوجود من الجواهر العقلية . فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تدم شخصيتها بالفناء في شيء سواها لا عقل فمالم ولا وجود واجب وهي تسعد بكاملها العلمي والأدبي الذي حصلته مدة تعلقها بالبدن . وجوز الفيلسوف أن تملن بعد مفارقتها للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيل فيه ما هو لذتها . وتشق بجملها وردامة ملكاتها . فالنفس عند الفيلسوف باقية خالدة . خلودها خلود اشخصها المتميز من كل شيء سواها سواء كان عقلاً ذملاً أو غيره فهل بهذا هذا يند الفيلسوف مادياً ومذهبه مذهباً مادياً قاعدته العلم ؟ لا بل هو إلهي ومذهبه مذهب إلهي قاعدته العلم قائل بخلود النفس وموادتها وشقاؤها وعذابها ونعيمها كما رأيت .

بقى علينا أن نشير إلى ما نقله فلاسفة أوربا عن الفيلسوف الجليل ابن رشد في مبدء العالم ومصدر وجوده . قالوا لم يكن يُعرف العلم والفلسفة عند الأوربيين إلا في مدارس المسلمين في إسبانيا فكان يقصد تلك المدارس طلاب العلم من كل ناحية . كان يجلس في درس الفيلسوف عند عظيم لم تأت نهاية القرن الثاني عشر (الميلادي) إلا وقد انتشر بين المشتهرين بشؤون العلم رأي زعيم طائفة الكبرية توافر في القباضين على مفاسح الغلو بذاك الوقت الموافقين على أصولها بأذون الحكام من المقائد والأفكار أن يدخل فيرا ويطردهون عنها ما لا يؤا ذلك إلا أي الذي أخذ يتسرب إلى تقديراتهم وجوانبها غير أن تكون أجمع برجع في وجوده إلى واحد هو حياة الكلي وهو روح يسوم به كل جزء منه . وقالوا إن

الذي نشر هذا المذهب بين الناس هم تلامذة ابن رشد ففهم بعض علمائهم من ذلك أن ابن رشد كان يقول إن مبدأ العالم هو أصل عرضته له صور العالم أو روح ظهر في مظاهر الكائنات كما يقول الصوفية أو نحو ذلك، واستتبع هذا رأياً آخر وهو أن كل صورة من صور الموجودات إذا بطأت فإنما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق وظن الواهم أن الأرواح تعود عند مفارقة الأجسام إلى مشرقها العام، وتفقد امتيازها فيه، وذلك كله وإن ذهب إليه بعض النظار من الأوربيين غير ما يقول ابن رشد. أما ما يقول ابن رشد فهو كما ترى:

قال ابن رشد وكل من تابعه على رأيه ولم يخالفوا في ذلك أرسطو أن الممكن لا وجود له في ذاته وإنما يستفيد الوجود من غيره وقد كانوا قالوا إن جميع ما في الكون ماعدا واجب الوجود المبرأ من المادة وغواشيها فهو ممكن فكل ما في العالم فهو مستفيد الوجود من غيره فذلك الغير إن كان ممكناً فكيف يسطى الوجود وهو لا وجود له إلا من غيره فإذا استمد منه مستمد فإنما يستمد من فضل ذلك الوجود الذي جاءه من موجدته إلى أن ينتهي إلى الوجود الأول. فكل وجود سطع على الممكنات فهو فائض من وجود الواجب فلا وجود إلا من وجوده أو كل وجود فهو شماع لضياء وجوده فإذا حرر الممنى من هذا على وجه أمكن عند المقل وجده يرجع إلى ما قاله السيد الشريف من أنمة أهل السنة وغيره وهو إن الممكن ليس بشيء في ذاته ثم يكون شيئاً بالإيجاد. والإيجاد لو حقيقته أمر اعتباري انتزاعي له منشأ في الواقع وذلك المنشأ هو ذات الموجد وماهية الوجود الممكن التي صارت شيئاً بتلك الطريقة الاعتبارية

حيثما يوجد في الموجودات وهي ما يمتصونه تطاق القدرة بالقدور. وما هيبة الممكن
ليست بوجودها ولا الوجود أمر موجود قائم بها. فإذا ليس من وجود
قس الأمر إلا وجود الواجب فكان الوجود الحقيقي واحداً وسائر
ما يسمى وجوداً أو موجوداً فإنما ينال ذلك بالإضافة إلى الوجود الحقيقي
وأولى بالتسمية أن تكون مجازية من أن تكون حقيقية.

مع ذلك لا يزال صاحب هذا القول يعتقد بتجرد الواجب عن
المادة والمدة إلا أن من تلقفه منه توسع فيه حتى كان من ذويه رأي
القائلين بأن الموجد الأول روح صار في العالم وإليه يرجع كل أشخاصه
لغناء شخصيتهم فيه وما هو برأي ابن رشد ولا يعرفه

على أن الصوفية وهم المصرحون بوحدة الوجود المبرون بالشهود
أولاً والغناء آخر الأناطون في ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم لم يقولوا
بزوال هويات النفوس زوالاً حقيقياً بل قالوا: إنها خالدة بعد مفارقة
الأهوان ولكنها تسعد في مخلوقها باستفراقها في شهودها، وذو لها من
كل ما يخلها عن مصدر وجودها، فهي غنية بمرآة عن معرفتها بنفسها
وهو ما يبر من الغناء ولذاته، والمصون ونهجه، وهو معنى تقصر دون
إنتهاجه المباركة، وإن كفى في تعريفه لأهل أخى الإشارات.

ولعل الجامعة لا تصب على الكاتب فيما كتب، وفيما أبا ب به من طلب،
فقد وفي عقلا لها لو أعظم علمها بالقدرة عليه. لحق لها أن توجه العتب إليه
هذا ما أرونا إيجاز القول فيه متعلقاً بفلسفة التكلمين ورأى
الفيلسوف وشأنه بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة من الكلام، على
التكلمين في الإسلام، إلى غير ذلك مما